

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الاستقلالية الفكرية

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَأَرْشَدَهُ بِالْوَحْيِ الْحَكِيمِ، وَزَوَّدَهُ عَقْلاً وَفِكْراً يَهْدِيهِ إِلَى الطَّرِيقِ الْقَوِيمِ، سُبْحَانَهُ أَوْضَحَ لِبَنِي الْبَشَرِ مَبْدَأَهُمْ وَمَصِيرَهُمْ، وَأَتَمَّنَهُمْ عَلَى سُلُوكِهِمْ وَمَسِيرِهِمْ، أَحْمَدُهُ سُبْحَانَهُ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ مِنَ الْحَمْدِ وَأُنْتَبِي عَلَيْهِ، وَأُؤْمِنُ بِهِ وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، شَرَعَ مِنَ الدِّينِ مَا يَدْعُو إِلَى اسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَإِعْمَالِ الْعَقْلِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ سَيِّدُ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ، نَهَى عَنِ التَّبَعِيَّةِ الْعَمِيَاءِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى كُلِّ مَنْ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَـ ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفُؤا رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾^(١)، ثُمَّ اشْكُرُوهُ سُبْحَانَهُ عَلَى أَنْ خَلَقَكُمْ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، وَفَطَرَكُمْ عَلَى الْفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ، وَزَوَّدَكُمْ الْعُقُولَ بِهَا تَسْتَهْدُونَ، وَفِي خَلْقِ اللَّهِ بِهَا تَتَفَكَّرُونَ، وَبِهَا فِي طَرِيقِ حَيَاتِكُمْ تَسْتَتِيرُونَ، يَقُولُ عَزَّ قَائِلًا حَكِيمًا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾^(٢)، إِنَّ هَذِهِ الْحَوَاسَّ وَالْمَلَكَاتِ إِنَّمَا وَهَبَنَا اللَّهُ إِيَّاهَا لِنَخْتَمِهَا مِنْ أَجْلِ حَيَاةٍ أَفْضَلَ، وَطَرِيقٍ أَمْتَلٍ، وَقَدْ نَعَى الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَلَى الَّذِينَ يُعْطَلُونَ حَوَاسَّهُمْ وَعُقُولَهُمْ أَمْرَهُمْ هَذَا، فَقَالَ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾^(٣)، وَلِذَا اسْتَنْهَضَ الْإِسْلَامُ الْعُقُولَ، وَوَجَّهَ الْأَفْهَامَ، وَأَيَّقَظَ الْحَوَاسَّ، وَنَبَّهَ الْمَشَاعِرَ،

(١) سورة النساء / ١ .

(٢) سورة المؤمنون / ٧٨ .

(٣) سورة الأعراف / ١٧٩ .

وَحَرَّرَ الْإِنْسَانَ مِنْ أَغْلَالِ التَّقْلِيدِ، وَسَيْطَرَةَ التَّبَعِيَّةِ الْعَمِيَاءِ، وَرَبَّاهُ عَلَى حُرِّيَّةِ الْفِكْرِ، وَاسْتِقْلَالِ الْإِرَادَةِ، لِيَكْمَلَ بِذَلِكَ عَقْلَهُ، وَيَسْتَقِيمَ تَفَكُّيرُهُ، وَتَكْتَمَلَ لَهُ شَخْصِيَّتُهُ وَإِنْسَانِيَّتُهُ، فَإِنَّ كَمَالَ الْعَقْلِ، وَسَلَامَةَ التَّفَكِيرِ، وَاسْتِقْلَالَ الْإِرَادَةِ، هِيَ أَسْسُ صِحَّةِ الْأَفْكَارِ، وَاسْتِقَامَةِ السُّلُوكِ، وَرُقْيَى الْأَخْلَاقِ، وَمَعْرِفَةِ الْحَقِّ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُتَّبَعَ، وَمَعْرِفَةِ الْبَاطِلِ الَّذِي يَجِبُ أَنْ يُجْتَنَّبَ، وَفِي الْأَثَرِ: ((مَا اكْتَسَبَ رَجُلٌ مِثْلَ عَقْلٍ، يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى، وَيَرُدُّهُ عَن ضَلَالٍ))، إِنَّ عَالَمَ الْيَوْمِ لَيَمُوجُ بِأَفْكَارٍ وَتَقَافَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ، وَحَضَارَاتٍ وَاتِّجَاهَاتٍ مُتَدَاخِلَةٍ، بِفِعْلِ الْإِنْفِتَاحِ التَّقَافِيِّ، وَتَعَدُّدِ الْوَسَائِلِ الْإِعْلَامِيَّةِ، وَسَهُولَةِ الْإِتِّصَالِ وَالتَّوَاصُلِ، وَهَذَا يَجْعَلُ الطَّرِيقَ أَمَامَ الْإِنْسَانَ مُتَشَعِّبَةً، وَالْأَفْكَارَ وَالرُّؤْيَى مُتَبَايِنَةً، وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَنَا طَرِيقَ الْإِيمَانِ وَالْهَدْيَةِ، وَتِلْكَ حِكْمَةٌ مِنَ اللَّهِ؛ لِيَخْتَارَ الْإِنْسَانُ دَرْبَهُ، وَيَتَحَمَّلَ مَسْئُولِيَّةَ اتِّجَاهِهِ، وَإِنَّ الْعَاقِلَ هُوَ مَنْ يَتَّخِذُ الدَّرْبَ الَّذِي يَرَى فِيهَا مَصْلَحَتَهُ الْحَقِيقِيَّةَ، وَمَا يُحَقِّقُ لَهُ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ، وَيَكْفُلُ لِمُجْتَمَعِهِ الْأَمْنَ وَالسَّلَامَ، وَيَأْمَلُ فِيهِ لِأُمَّتِهِ وَوَطَنِهِ الْخَيْرَ وَالتَّقَدَّمَ إِلَى الْأَمَامِ، فَكَيْفَ يُكْتَبُ لَهُ النَّجَاحُ؟ وَكَيْفَ يَجْتَازُ الْإِمْتِحَانَ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْفِكْرِ السَّلِيمِ مَا يَهْتَدِي بِهِ، وَمِنَ الْإِسْتِقْلَالِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ مَا يُحَدِّدُ لَهُ الدَّرْبَ السَّوِيَّ؟

عِبَادَ اللَّهِ:

لَقَدْ حَذَرَ الْإِسْلَامُ الْحَنِيفُ مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾^(١)، إِنَّ مَسَلَكَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى يَنْفِي احْتِرَامَ النَّفْسِ الْبَشَرِيَّةِ، وَتَقْدِيرَ الذَّاتِ الْإِنْسَانِيَّةِ، فَالْمُقَلِّدُ يُعْطَلُ عَقْلُهُ الَّذِي وَهَبَهُ اللَّهُ إِيَّاهُ، ثُمَّ يَدُوبُ فِي شَخْصِيَّاتِ الْآخَرِينَ وَأَفْكَارِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْإِمْعَةُ الَّذِي لَا هُويَّةَ لَهُ وَلَا شَخْصِيَّةَ، يَقُولُ الْمُصْطَفَى ﷺ: ((لَا يَكُنْ أَحَدُكُمْ إِمْعَةً؛ يَقُولُ: إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ أَحْسَنَتْ وَإِنْ أَسَاؤُوا أَسَأْتُ، وَلَكِنْ وَطَنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا، وَإِنْ أَسَاؤُوا فَلَا تَظْلِمُوا))، فَمَا بَالُ بَعْضِ النَّاسِ يَتَّخِذُونَ التَّقْلِيدَ لَهُمْ مِنْهَجًا، وَالتَّبَعِيَّةَ طَرِيقًا وَمَسَلَكًا؟ أَمَا

يَرْغَبُونَ فِي اسْتِقْلَالِ شَخْصِيَّاتِهِمْ؟ أَمَا يُحِبُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ كَيْانُهُمْ وَإِدْعَاؤُهُمْ؟ لِمَاذَا يُعْطَلُونَ عُقُولَهُمْ وَيَدْفِنُونَ قُدْرَاتِهِمْ؟ وَإِنْ شِئْنَا لَهُمُ اللَّوْمَ وَالْعِتَابَ، فَإِنَّا عَلَى يَقِينٍ أَنْ وَرَاءَ مَسْلَكِهِمْ دَوَاعِي وَأَسْبَابًا، وَمِنْ بَيْنِهَا الْفِرَاقُ، وَغِيَابُ الْقُدْوَةِ، وَلَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ تَعْرِفُ حَيَاةَ الْمُؤْمِنِ طَرِيقَ الْفِرَاقِ، وَإِيمَانُهُ يَدْعُوهُ إِلَى اغْتِنَامِ أَوْقَاتِهِ، وَتَنْمِيَةِ أَفْكَارِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَسْتَسِيغُ الْمُوَاطِنُ الصَّالِحُ أَنْ يَبْقَى بِلا عَمَلٍ وَقَدْ فَتَحَتْ لَهُ آفَاقُهُ وَمَجَالَاتُهُ؟ إِنَّ الشَّابَّ الْوَاعِي حِينَ يَعْرِفُ قِيَمَةَ الْحَيَاةِ، وَيُدْرِكُ قِصْرَهَا وَسُرْعَةَ انْقِضَائِهَا، لَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ أَنْ تَذْهَبَ أَوْقَاتُهُ هَدْرًا، وَسَاعَاتُهُ سُدًى، حَتَّى لَا يَفْتَرِسَهُ الْفِرَاقُ، وَتَأْكُلَهُ الْهُمُومُ، وَتَسَيِّرَ عَلَيْهِ الْوَسَاوِسُ، وَتُحِيطَ بِهِ الظُّنُونُ، ثُمَّ يَبْحَثَ عَنِ مُتَنَفِّسٍ وَمَخْرَجٍ، فَيَرْمِي نَفْسَهُ فِي مُخْتَلَفِ الطَّرِيقِ وَالذُّرُوبِ، يُجَرِّبُ الْمَسَالِكَ، وَيَتَشَرَّبُ أَنْوَاعَ الْأَفْكَارِ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يُوطِّنَ نَفْسَهُ عَلَى هَدَفٍ يَرْجُو مِنْ وَرَائِهِ النِّفْعَ لَهُ وَالْأَمْتَةَ، وَيَسْعَى إِلَيْهِ عَلَى وَفْقِ خُطَّةٍ وَاضِحَةٍ، وَدَرْبٍ مَرْسُومٍ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ:

إِنَّ الْمُؤْمِنَ وَهُوَ يَسْعَى إِلَى فِكْرٍ مُتَزِنٍ مُسْتَقَلٍّ، يُدْرِكُ تَمَامَ الْإِدْرَاكِ أَنَّ الْعِلْمَ مِفْتَاحُ اسْتِقْلَالِ الْفِكْرِ وَاتِّزَانِ التَّصَوُّرِ، فَالْجَاهِلُ مُضْطَرٌّ إِلَى التَّقْلِيدِ، مُفْتَقِرٌ إِلَى الْاِتِّبَاعِ الدَّائِمِ، لَيْسَ لَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا يُوضِّحُ لَهُ السَّبِيلَ وَيَهْدِيهِ الطَّرِيقَ، وَلِذَا نَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ يَجْعَلُ أَهْلَ الْعِلْمِ هُمْ أَهْلَ الشَّهَادَةِ لَهُ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، إِذْ هُمْ أَبْصَرُوا بِالدَّرْبِ السَّوِيِّ، وَهُمْ أَقْدَرُ عَلَى الْاِتِّزَانِ وَالْاِسْتِقْلَالِيَّةِ، يَقُولُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾^(١)، إِنَّ الرَّجُلَ الْوَاعِي يَسْعَى إِلَى الْمَعْلُومَةِ مِنْ مَصَادِرِهَا، وَيَطْلُبُ الْعِلْمَ مِنْ مَظَانِهِ، يَأْخُذُ مَسَائِلَ الدِّينِ مِنَ الْعَالَمِينَ بِهِ، وَالتَّعْلِيمَاتِ الصَّحِيَّةِ مِنْ أَهْلِ الطَّبِّ، وَقَضَايَا الْمَالِ مِنْ أَهْلِ الْاِقْتِصَادِ حَتَّى يَكُونَ لَهُ حَصِيلَةٌ عِلْمِيَّةٌ، وَرَصِيدًا ثَقَافِيًّا، يُكْسِبُهُ اسْتِقْلَالًا فِي الْفِكْرِ، وَيَمْنَحُهُ ثِقَةً بِالنَّفْسِ تَحُولُ دُونَ اتِّبَاعِ سَرَابِ الشُّعَارَاتِ، فَتَجِدُهُ يُوطِّنُ نَفْسَهُ فِي مُخْتَلَفِ الْأَحْوَالِ، وَيَسْتَطِيعُ اتِّخَاذَ قَرَارِهِ فِي أَحْلَاكِ الظُّرُوفِ وَالْمَوَاقِفِ، وَهَذَا شَأْنُ الْمَشِي السَّوِيِّ، وَالدَّرْبِ الْوَاضِحِ الْجَلِيِّ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّخْبِطِ بَوْنٌ شَاسِعٌ، وَأَنْتُمْ تَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ

الله قَوْلَ الْبَارِي جَلَّ فِي عِلَاهُ: ﴿أَفَنْ يَمْشِي مُكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (١)، نَعَمْ، تَجِدُ صَاحِبَ الْعِلْمِ مُسْتَقِلَّ الْفِكْرِ، وَاتَّقِ الْخُطَى، لَا يَكْتَرِثُ لِلْأَرَاخِيفِ، وَلَا يَلْتَقِتُ إِلَى الشَّائِعَاتِ، لَا يُؤَثِّرُ فِيهِ كَسَلُ الْمُتَخَاذِلِينَ، وَلَا حَمَاسَةُ الْمُندَفِعِينَ، وَلَا غُلُوُّ الْمُتَطَّعِينَ، إِنَّمَا هُوَ فَرْدٌ مِنْ أُمَّةٍ جَعَلَهَا اللَّهُ وَسَطًا فِي أُمُورِهَا، وَأَمْرَهَا بِالرَّفْقِ فِي تَعَامُلَاتِهَا، يَضَعُ نُصْبَ عَيْنَيْهِ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: ((إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ؛ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ))، وَيَسْتَضِيءُ فِي اجْتِهَادِهِ وَهَمَّتِهِ بِهَدْيِ الْمُصْطَفَى - صَلَوَاتُ رَبِّي وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ - حِينَ قَالَ: ((اسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ)).

إِخْوَةَ الْإِيمَانِ:

إِنَّ اسْتِقْلَالِيَّةَ الْفِكْرِ لَا تَعْنِي أَنْ يَرْكَبَ الْمَرْءُ هَوَاهُ، أَوْ أَنْ يَجْعَلَ عَقْلَهُ حَكَمًا فِي كُلِّ أَمْرٍ، فَإِنَّ الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ يَظَلُّ قَاصِرًا، وَالْأَفْهَامَ تَتَفَاوَتُ، وَالرُّؤْيَى وَالتَّصَوُّرَاتِ تَخْتَلِفُ، وَلَوْ تَرَكْتَ الْأَحْكَامَ لِلْعُقُولِ وَالْأَفْهَامِ، لَتَخَبَّطَ النَّاسُ كُلُّهُ عَلَى تَصَوُّرِهِ وَفَهْمِهِ، وَمَا نَزَلَتْ شَرَائِعُ، وَلَا سُنَّتُ قَوَانِينُ، وَإِنَّمَا الْعَقْلُ دَلِيلٌ إِلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ، وَاقْتِنَاءِ الصَّوَابِ، وَالتَّمْيِيزِ بَيْنَ النَّافِعِ وَالضَّارِّ، وَبَيْنَ الْقَوْلِ الثَّابِتِ وَمَا عَدَاهُ مِنْ شَائِعَاتٍ وَأَبَاطِيلٍ، وَبَيْنَ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْعَمَلِ وَفَقِّ الْأَنْظِمَةِ الَّتِي مَا شُرِعَتْ إِلَّا لِلْمَصْلَحَةِ وَالْمَنْفَعَةِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ -، وَاجْعَلُوا عُقُولَكُمْ قَائِدًا نَحْوَ الْحَقِيقَةِ وَالصَّوَابِ، نَائِيًا بِكُمْ عَنْ كُلِّ مَا فِيهِ شَكٌّ وَارْتِيَابٌ، وَارْبُؤُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ مَزَالِقِ الْهَوَى، أَوْ اتِّبَاعِ الشَّائِعَاتِ، وَعَلَيْكُمْ بِالْعِلْمِ وَالتَّبَصُّرِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ الْحَقَّ لَا تَغْرُهُ الْمَظَاهِرُ وَالشَّعَارَاتُ، إِنَّمَا غَايَتُهُ الْجَوْهَرُ وَالْمَضْمُونُ، وَمَا فِيهِ الْخَيْرُ وَالْمَنْفَعَةُ.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُوهُ يَغْفِرْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ،

(١) سورة الملك / ٢٢ .

(٢) سورة الجاثية / ١٨ .

وَادْعُوهُ يُسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ .

*** **

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، وَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلِيُّ الصَّالِحِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِمَامُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَأَفْضَلُ خَلْقِ اللَّهِ أَجْمَعِينَ، ﷺ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ، وَعَلَى مَنْ سَارَ عَلَى دَرْبِهِ وَتَرَسَّمَ خُطَاهُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .
أَمَّا بَعْدُ، فَيَا عِبَادَ اللَّهِ:

مَا أُرْوَعُ أَنْ نَرَى أَبْنَاءَنَا أَصْحَابَ فِكْرٍ مُسْتَقِلٍّ، وَتَصَوُّرَاتٍ مُتَزَنَةٍ، يَمْشُونَ ثَابِتِي الْخَطَوَاتِ، بِعِيدِي الْعَثَرَاتِ، وَهَنِيئًا لَوْطَنِ عَزِيزٍ يَجِدُ شَبَابَهُ اتَّخَذُوا مَسْلَكًا وَاضِحًا، وَدَرْبًا سَوِيًّا بَيْنًا، فَيَضَعُ فِيهِمْ رَجَاءَهُ، وَيَحُطُّ عِنْدَهُمْ رِحَالُ آمَالِهِ، وَلَكِنْ هَلْ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ الْكَلَامِ؟ وَهَلْ يُبْنَى الْإِنْسَانُ بِالْأَمَالِ وَالْأَحْلَامِ؟ كَلَّا وَمَا ذَاكَ بِخَافٍ عَلَيْكُمْ، وَقَدْ قَرَأْتُمْ قَوْلَ الْحَقِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١)، نَعَمْ فَالْهَدَايَةُ وَالتَّوْفِيقُ مَنَاطُهُمَا الاجْتِهَادُ وَالتَّضْحِيَةُ، وَلَا بُدَّ مِنْ تَصَافُرِ الْجُهُودِ، حَتَّى يُؤْتِيَ الثَّمَرَةَ الْمَجْهُودُ، بَدَأَ بِالتَّنَشُّةِ الْأُسْرِيَّةِ السُّوِيَّةِ، فَهِيَ عِمَادُ الْاِسْتِقْلَالِيَّةِ الْفِكْرِيَّةِ، فَالطُّفْلُ يُوَلَّدُ فِينَا صَفْحَةً بِيضَاءَ نَاصِعَةٍ، تَنْتَظِرُ مَنْ يَخْطُ بَيْنَ جَنَابَاتِهَا الْأَفْكَارِ السَّلِيمَةِ، وَالتَّصَوُّرَاتِ الصَّحِيحَةِ، وَهَذِهِ مَسْئُولِيَّةٌ وَأَمَانَةٌ فِي عُنُقِ أُسْرَتِهِ بِالدرَجَةِ الْأُولَى، فَأَكْرَمُ بَابٍ وَأُمٌّ جَعَلَا لِأَوْلَادِهِمَا نَصِيبًا وَافِرًا مِنْ جُهْدِهِمَا، وَضَحِيًّا لَهُمْ بِجُزْءٍ مِنْ وَقْتِهِمَا، فَيَجِدُ الْأَوْلَادُ مَنْ يُحَاوِرُهُمْ وَيُنَاقِشُهُمْ، وَيَتَابِعُ أَفْكَارَهُمْ، وَتَنْظُرْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ، وَتَطْلُعَاتِهِمْ وَآمَالَهُمْ، وَيَنْظُرُ فِي أُسُوتِهِمْ، بَلْ يَكُونُ هُوَ قُدُوتَهُمْ، بِالْمُسَارَعَةِ إِلَى الْبِرِّ، وَالسَّبْقِ إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ الْمَنْفَعَةُ وَالْخَيْرُ، حَتَّى يُصَدِّقَ الْقَوْلَ الْعَمَلُ، وَيَرَوْا فِي شَخْصِيَّةِ أَبِيهِمْ وَنَجَاحِ أُمَّهِمْ مَا يُشَجِّعُهُمْ عَلَى الْاِقْتِدَاءِ وَالتَّاسِّيِ، وَإِلَّا دَفَعْتَهُمُ الْحَاجَةَ إِلَى الْأُسُوةِ وَالْقُدُوةِ، إِلَى التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى، فَيَنْشَوْنَ

عَلَى التَّشْتِتِ وَالتَّخْبِطِ، يَحْمِلُونَ كُلَّ يَوْمٍ فِكْرَةً جَدِيدَةً، ثُمَّ يُلْقَى عَلَيْهِمُ اللُّؤْمُ وَالْعِتَابُ: كَيْفَ تَشْرَبْتُمْ هَذِهِ الْأَفْكَارَ؟ فَهَلَّا أَدْرَكَ الْأَبَاءُ عِظَمَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ، وَهَلَّا أَعَانَهُمْ فِي ذَلِكَ بَاقِي الْمُرَبِّينَ، فِي الْمَدَارِسِ وَالْجَامِعَاتِ وَغَيْرِهَا، فَهَذِهِ مَسْئُولِيَّةُ الْجَمِيعِ، لِتَعُودَ الْفَائِدَةُ عَلَى الْمُجْتَمَعِ بِأَسْرِهِ، فَإِنَّ مُجْتَمَعًا يَنْشَأُ الْأَوْلَادُ فِيهِ عَلَى اسْتِقْلَالِيَّةِ الْفِكْرِ، لَا مَكَانَ فِيهِ لِأَفْكَارِ التَّشَدُّدِ وَالتَّتَطُّعِ، أَوْ التَّسَيِّبِ وَالتَّهْرَبِ مِنَ الْمَسْئُولِيَّاتِ، أَوْ التَّخْرِيبِ وَالْمُخَالَفَاتِ، فَلَا يَجِدُ فِيهِ الْمُرْجِفُونَ سَبِيلًا إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ، وَلَا يُلْقَى الْمُتَذَمَّرُونَ الْمُتَخَاذِلُونَ مَنْ يَفْتَحُ لَهُمْ أُذُنِيَّةً، أَوْ يَتَشَرَّبُ أَقْوَابِيْلَهُمْ وَأَبَاطِيْلَهُمْ، وَعِنْدَهَا يَنْدُرُ فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ مَنْ يَرْكَنُ إِلَى الْكَسَلِ، أَوْ يَسْتَنْكِفُ عَنِ الْعَمَلِ، أَوْ يَسْهَرُ طَوَالَ اللَّيْلِ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ، وَتَقَلُّ فِيهِ مُخَالَفَاتُ الْمُرُورِ وَالْعَبَثُ بِوَسَائِلِ الْإِتِّصَالَاتِ، فَقَدْ اِتَّرَنْتْ أَفْكَارُ الشَّبَابِ وَأَبْنَاءِ الْمُجْتَمَعِ، وَارْتَقَتْ هِمَمُهُمْ، وَزَادَ وَعَيْهِمْ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ - عِبَادَ اللَّهِ -، وَنَشِّئُوا أَوْلَادَكُمْ عَلَى الْأَفْكَارِ السَّلِيمَةِ، وَرَبُّوهُمْ عَلَى الْقِيَمِ النَّبِيلَةِ، تُسَرُّوا بِشَخْصِيَّاتِهِمْ، وَيَسْعَدِ الْمُجْتَمَعُ بِهِمَمِهِمْ وَإِبْدَاعَاتِهِمْ، وَلَنْتَعَاوَنَ مِنْ أَجْلِ مُجْتَمَعِ تَسْوَدُهُ اسْتِقْلَالِيَّةُ الْفِكْرِ، وَيُنْأَى أَبْنَاؤُهُ عَنِ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى.

هَذَا وَصَلُّوا وَسَلَّمُوا عَلَى إِمَامِ الْمُرْسَلِينَ، وَقَائِدِ الْغُرِّ الْمَحَجَّلِينَ، فَقَدْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَيْهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ عَزَّ قَائِلًا عَلِيمًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١).

اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ وَسَلَّمْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنْ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَّا مَعَهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ

الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمْعَنَا هَذَا جَمْعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ تَفَرُّقَنَا مِنْ بَعْدِهِ تَفَرُّقًا مَعْصُومًا، وَلَا تَدْعَ فِينَا وَلَا مَعَنَا شَقِيًّا وَلَا مَحْرُومًا. اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالنُّقَى وَالْعَفَافَ وَالْغِنَى.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَنْ تَرْزُقَ كُلًّا مِنَّا لِسَانًا صَادِقًا ذَاكِرًا، وَقَلْبًا خَاشِعًا مُنِيبًا، وَعَمَلًا صَالِحًا زَاكِيًّا، وَعِلْمًا نَافِعًا رَافِعًا، وَإِيمَانًا رَاسِخًا ثَابِتًا، وَيَقِينًا صَادِقًا خَالِصًا، وَرِزْقًا حَلَالًا طَيِّبًا وَاسِعًا، يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

اللَّهُمَّ أَعِزِّ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَوَحِّدِ اللَّهُمَّ صُفُوفَهُمْ، وَأَجْمِعْ كَلِمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَاكْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاكْتُبِ السَّلَامَ وَالْأَمْنَ لِعِبَادِكَ أَجْمَعِينَ. اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعِزِّ سُلْطَانَنَا وَأَيِّدْهُ بِالْحَقِّ وَأَيِّدْ بِهِ الْحَقَّ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا اسْتَقْنَا مِنْ فَيْضِكَ الْمِدْرَارِ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الذَّاكِرِينَ لَكَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، الْمُسْتَغْفِرِينَ لَكَ بِالْعَشِيِّ وَالْأَسْحَارِ.

اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثَمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وَكُلِّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ.

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

رَبَّنَا لَا تَزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا، وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ.

رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، وَالْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللَّهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.